في مناقشة كل التفاصيل الجزئية ، فسنكتفي هنا بتقديم ملاحظات عامة عن الكتاب : وهذه الملاحظات هي :

أولا : على الرغم من ان المؤلف قدم لنا دراساته على اساس انها « محاولات لاستخدام المنهج المادي التاريخي » ، فانه كثيرا ما يلجأ الى التعميم ، والى تبني الافكار الشائعة كما سنبينه فيما بعد . وهذا يجعل المؤلف ينساق احيانا وراء اخطاء شائعة ، وتجعله في احيان اخرى يحاول ان يفرض علينا الافكار والاشاعات المتداولة ، وكأنها حقائق علمية . كما أنه في احيان اخرى ، ونتيجة التسرع في رفض بعض الاراء ، او تبنيها ، ينساق الى ارتكاب اخطاء كبيرة .

ثانيا : ان اول ما يمكن ان يوجه الى المؤلف ، هو أنه اراد ان يؤكد على حقيقة علمية ، فارتكب خطأ علميا . انه اراد ان يؤكد على أن المسألة اليهودية هي بنت المجتمع البرجوازي ، وان المسألة اليهودية ليست مشكلة اليهودي المجرد بل مشكلة اليهودي الواقعي ، الكائن الحي الذي مارس الربا لان الربا كان حاجة اجتماعية ، ولانه كان مؤهلا لممارسة هذا الدور ضمن الظروف الاجتماعية القائمة ، ولقد اضطهد نتيجة صراع برجوازيتين : برجوازية يهودية وبرجوازية وطنية صاعدة في بلدان اوروبا الغربية ثم الشرقية الخ ... ولقد أورد الدكتور العظم مجمل الافكار التي اوردها ماركس وابراهيم ليون خاصة ، وغيرهم من المفكرين الماركسيين الكبار . وانا لا اخالفه فيما ذهب اليه اساسا . ولكني اعتقد ان صادقا تجاهل حقيقتين :

الاولى : انه تجاهل دور البنى الفوقية في مشكلة اليهودية . صحيح ان البنى الفوقية ، هي بنت الواقع ، انعكاس له ، ولكنها بعد ان توجد وتتكون تصبح جزءا من الواقع ، وبالتالي تصبح من العوامل المؤثرة فيه . وهذا ما يؤكده ماركس وانجلز ولينين. وقد حاول انجلز ان يفسر هذا الاهتمام بالبناء التحتي في رسالة الى بلوخ عام ١٨٩٠ جاء فيها : « ماركس وانا نحمل جزئيا مسؤولية كون الشباب يعطون الجانب الاقتصادي وزنا اكبر مما يجب . ففي مواجهتنا لخصومنا كان علينا أن نؤكد المبدأ الاساسي الذي ينكرونه . وفي هذه الحال لم نجد دائما الوقت والموضع والظرف الذي يتيح لنا اعطاء العوامل الاخرى التي تشترك في الفعل المتبادل مكانها . ولكن ما ان كان يجب علينا ان نقدم قطعة تاريخ حية (او شرحة تاريخ) أي أن ننتقل الى التطبيق العملي ، حتى كان الامر يتبدل ولا يبقى مجال للخطأ». (راجع : Marx, Engels: Selected Correspondence, Progren Publishers, Moscow, p. 417-418.

ويؤكد انجلز : « ان الوضع الاقتصادي هو القاعدة ولكن العناصر الاخرى من البنى — الفوقية — الاشكال السياسية من النضال الطبقي ونتائجها ، تمارس ايضا تأثيرها على مجرى الكفاح التاريخي وفي كثير من الحالات « ترجح في تقرير نمطه » ، ويذكر انجلز الدين من بين هذه البنى وما لم يتحدث عنه ماركس وانجلز ولينين وابراهيم ليون — فيما نعلم — هو دور البنى الفوقية اليهودية في المسألة اليهودية . ولقد جاء صادق وتجاهل هذه الناحية اطلاقا . هل يجد صادق لنفسه عذرا في ذلك انه يرد على نظرة « مثالية » ، وانه بحاجة لان يؤكد الاساس المادي للقضية ؟ ربما كان ذلك هو السبب ، ولكنه لا يعفي صادقا من تجاهل جانب اساسي من القضية : البنى الفوقية لليهود واليهودية . ذلك اننا ان لم نبحث هذا الجانب فسوف نقف حائرين امام العديد من الظواهر المعاصرة ، فيما يتعلق ببقاء اليهودية وانحلالها العالم الاشتراكي والعالم الرأسمالي .

الثانية : ان صادق تجاهل ايضا دور الشتات وحياة المدن ، ومن ثم الغيتو ، في خلق الشخصية اليهودية . ان اليهودي انسان ، مثل كل الناس وهو يخضع عموما للظروف التي يعيشها مجتمعه ولكنه بالاضافة الى ذلك « مهاجر » . والمهاجرون عادة ينزلون المدن ، ويقيمون في احياء خاصة بهم هذا ما يفعله العرب في اوروبا وامريكا والهند والباكستان ، وما يفعله الهنود في اوروبا والصينيون في مهاجرهم . انه قانون عام .

ولا يعرف التاريخ جماعة هاجرت هجرة اليهود وتنقلت كما تنقلوا . وفي المهاجر كانوا يخلقون احياءهم المغلقة . وهذه الاحياء المغلقة لم توجد لهم الشعوب التي نزلوا بين ظهرانيها . لقد اوجدتها ظروفهم كمهاجزين من « نحلة » خاصة ثم جاء دور الشعوب والحكام والاديان التي حدت بين ظهرانيها . وكان هنالك تفاعل بين هذه الظاهرتين . ان هذه الظاهرة لا يجوز تجاهلها بالطبع هناك أسباب لهجرتهم ، ولكنها ليست عائدة الى انحلال النظام الاقطاعي فقط . فلقد عرف التاريخ هجرات يهودية قبل ذلك . (راجع ليون